ندوة

جانب من الندوة

المقاربات الغربية للعلوم الإسلامية في 11 بحثاً نقدياً

مساءلة تركات المستشرقين

احد عشر بحثاً تضمّنتها ندوة «المقاربات الغربية الحديثة للعلوم الإسلامية... مراجعات نقدية»، التي أُقيمت في الدوحة بالتعاون بين كلّية الشريعة والدراسات الإسلامية في «جامعة قطر» و«مركز نهوض للدراسات والبحوث» في الكويت

الدوحة ـ **محمد هديب**

قبل خمسين عاماً قالت المستشرقة الألمانية آنا ماري شيمل (1922 - 2003) إنّ لا أحد استطاع الإحاطة بظاهرة التصوّف الإسلامي. وفي كتابها «أبعاد صوفية للإسلام»، شبّهت الباحثين بالعُمي الذين تحسّسوا فيلاً فقال أحدهم إنّه عرش والثاني قال إنّه مروحة والثالث قال إنّه نرجيلة. وهذا واحد من مباحث الأكاديميا الغربية التي عفرت متنا معرفياً ثريا يتعلّق بالعلوم الإسلامية في حقول الدراسات القرآنية والحديثية، والعقيدة وعلم الكلام، والفقه الإسلامي وأصوله، إلّا أن شيمل تبدو كأنّها تُحدّث قومها الغربيّين عمّا يشغلهم، ولا يشغل أولئك الذين يعيشون بدءاً من الشرق الأدنى فالشرق الأوسط.

ولهذا تحدّث العميد المساعد لشؤون البحث والدراسات العليا في «جامعة قطر»، صالح الزنكي، في كلمة اختتمت مساء السبت الماضي ندوة «المقاربات الغربية الحديثة للعلوم الإسلامية... مراجعات نقدية»، فجدّد السؤال المضني عن ريادة وسيادة هذه الدراسات حول علوم تخصّنا نحن في الغرب، «لماذا نحن عالة على غيرنا في علوم إسلامية؟». والغرب بهذا المعنى، هو الكتلة الأكثر نشاطاً الأوروبي منه والأميركي، لكن الزنكي أشار كذلك إلى حراك مراكز علمية في الشرق، حتى لا نبقى أسرى عشق وبغض غرب واحد. ومن ذلك البيان في مثال استحضره للتدليل على الجدية الأكاديمية عند دخولها حقول الدراسات الاجتماعية والإسلامية، في الوقت الذي يُنتظر أن يكون اعتماد الآخرين على منتجاتنا المعرفي فنتحوّل نحن إلى شاهد على الناس. ورغم هذه الخلاصة، أثنى الزنكي على مجريات الندوة التي تضمّ إلى جهود بحثية يمكن مع تضافر مراكز البحث الأكاديمية أن تُحدث نقلة نوعية. احد عشر بحثاً أستغرقَ تقديمها يوماً كاملاً بالتعاون بين كلّية الشريعة والدراسات الإسلامية في «جامعة قطر» و«مركز نهوض للدراسات والبحوث» في الكويت، للوقوف على منجزات، خلص المؤتمر إلى أنّ كلّ واحد منها يحتاج إلى طاقات بحثية كبيرة لدرسها ونقدها والاستفادة منها. قُسّمت الندوة إلى جلسات ثلاث، تناولت الأولى الدراسات القرآنية والحديثية، وفيها عرض عبد الله الخطيب، الأستاذ في كلية الشريعة والدراسات عن الفكر الاستشراقي العام، كما لاحظ أبو سمحة، بينما تتمثّل الإيجابيات في تحفيز الناظر من أهل الاختصاص لتعميق هذا المنحى من الدراسات، ممّا يُشكّل فرصة أمام طلبة الدراسات العليا للحفر البحثي بذات الطريقة لكن بمنطلقات مختلفة. وفي الجلسة الثانية المعنية بدراسات العقيدة وعلم الكلام، طرح عزيز البطيوي، الأستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في «جامعة قطر» دراسته التحليلية النقدية لـ«الأصول الاجتماعية لتشكّل علم الكلام في دراسات المستشرق فان إس». ووقفت الورقة على قضية تاريخية ذات أبعاد معرفية وحضارية، تتعلّق بإشكالية البحث في الأصول الاجتماعية التاريخية والسياسية لتشكّل علم الكلام من وجهة نظر الاستشراق الألماني، مع التركيز على دراسات المستشرق الألماني جوزيف فان إس نموذجاً للتحليل والنقد، باعتبارها أبرز الدراسات وأكثرها تأثيراً وشهرة.

وعاينت ورقة سمير قدوري، الأستاذ في كلّية الشريعة والدراسات الإسلامية بـ«جامعة قطر»، «مناهج المستشرقين المعاصرين في بحث مسألة صحّة الوثائق الإسلامية في الجدل مع أهل الكتاب»، لأنّ الاستشراق المُعاصر غنيّ مبكراً باكتشاف الوثائق

> عزوفٌ عن النقد التاريخي مقابل العناية بالنقد الأدبي

ولفت إلى أنّ مستشرقين آخرين قدّموا نقداً جذرياً أحياناً للخلاصات الراديكالية التي انتهى إليها بعض كبار المستشرقين وهيمنت على الأكاديميا الغربية لعقود.

وخصّص عبد السلام أبو سمحة، الأستاذ في كلّية الشريعة والدراسات الإسلامية بـ«جامعة قطر» قراءة نقدية في كتاب «قال رسول الله: شرح الحديث في ألف عام» لـ جويل بليشر، الباحث المتخصّص في تاريخ الإسلام الفكري. ووفق ما قدّمه، فإنّ هذا الكتاب يُعدّ نقلة نوعية في البحث الاستشراقي لتناوله موضوعاً بكراً لم يسبق تناوله بالدراسة التحليلية بالنحو الذي قدّمه الباحث في محاولة منه للحياد، لكنّ هذا الحياد ضاع في غياهب الإسقاطات التي استصحبها الباحث من مرجعياته السابقة. وعليه، فإنّ منطلقات الباحث لم تبتعد عن الفكر الاستشراقي العام، كما لاحظ أبو سمحة، بينما تتمثّل الإيجابيات في تحفيز الناظر من أهل الاختصاص لتعميق هذا المنحى من الدراسات، ممّا يُشكّل فرصة أمام طلبة الدراسات العليا للحفر البحثي بذات الطريقة لكن بمنطلقات مختلفة. وفي الجلسة الثانية المعنية بدراسات العقيدة وعلم الكلام، طرح عزيز البطيوي، الأستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بـ«جامعة قطر» دراسته التحليلية النقدية بـ«الأصول الاجتماعية لتشكّل علم الكلام في دراسات المستشرق فان إس». ووقفت الورقة على قضية تاريخية ذات أبعاد معرفية وحضارية، تتعلّق بإشكالية البحث في الأصول الاجتماعية التاريخية والسياسية لتشكّل علم الكلام من وجهة نظر الاستشراق الألماني، مع التركيز على دراسات المستشرق الألماني جوزيف فان إس نموذجاً للتحليل والنقد، باعتبارها أبرز الدراسات وأكثرها تأثيراً وشهرة.

وعاينت ورقة سمير قدوري، الأستاذ في كلّية الشريعة والدراسات الإسلامية بـ«جامعة قطر»، «مناهج المستشرقين المعاصرين في بحث مسألة صحّة الوثائق الإسلامية في الجدل مع أهل الكتاب»، لأنّ الاستشراق المُعاصر غنيّ مبكراً باكتشاف الوثائق

> عزوفٌ عن النقد التاريخي مقابل العناية بالنقد الأدبي

المألوف في التصنيف التراثي للعلوم كالدراسات القرآنية، والأصولية، والكلامية، والفلسفية، ودراسات التصوّف... إلخ، أو التصنيفات الحديثة كالدراسات اللسانية والهرمنيوطيقية (التأويلية)، وهذا التنوّع الاعتباري له أثر في تنوّع طبيعة البحوث، من جهة بنيتها وأسئلتها ومناهجها ونحو ذلك. وأمام تاريخ الدراسات الإسلامية والفقهية في الجامعات الغربية، عرض مراد عبيدي من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بـ«جامعة قطر» تحدّيات المنهج والمفهوم. فمن الناحية التاريخية والمنهجية، ميّز الباحث بين ثلاث مراحل كبرى: «الدراسات التبريرية المسيحية»، و«الدراسات الاستشراقية»، و«الدراسات الإسلامية». أمّا الدراسات الفقهية في الجامعات الغربية فرصدها منذ تخلّقها الجنيني إلى تأسيسها باعتبارها حقلاً بحثياً ودراسياً مستقلاً، متطرّقاً إلى أهمّ مجالاته، ومباحثه، ومناهجه، وتوجّهاته النقدية المعاصرة، وصلته بالاستشراق.

هذه الصلة تستند عند الباحث إلى أنّ فهم الاستشراق ودوره في الدراسات الإسلامية الغربية يمكّن من تفكيك الجذور الاستعمارية للدراسات الفقهية من جهة، ويقف على مدى تأثير مركزية العقل الأوربي وفلسفة التنوير في مقارباتها ومناهجها الأكاديمية من جهة أخرى. وتوجّه حسن الرميحي من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بـ«جامعة قطر» بدراسة تحليلية نقدية إلى المقاربات النقدية للاستشراق عند وائل حلاق، متتبعاً المقاربات النقدية لأحد أهمّ حقول الدراسات الاستشراقية، والمتمثّل في الدراسات حول الإسلام وتاريخ الشريعة، مقدّماً تحليلاً لنقد وائل حلّاق للمستشرقين المهتمّين بتاريخ الشريعة، والذين شكّلوا محطات مهمّة في الدراسات الغربية حول الإسلام؛ مثل إغناتس غولدتسير، وجوزيف شاخت، والباحث الألماني في الدراسات الإسلامية والتاريخ الإسلامي المبكر هارالد موتسكي (1948 - 2019).

وتناول الرميحي ثلاثة نماذج رئيسية للمجالات التي اشتبك فيها حلاق مع السردية الاستشراقية؛ وهي مسألة جمود الشريعة في زمن ما بعد الإمام الشافعي، وقصور الشريعة عن مواكبة التحوّلات الاجتماعية (الشخصية المعنوية نموذجاً)، والاستمداد الإسلامي من الثقافات المجاورة في زمن التكوين، مقدّماً تاريخ الشريعة بوصفه مجالاً بحثياً يتقاطع مع أنثروبولوجيا المعرفة بوصفه أحد أهم المجالات التي يمكن للفقيه الاستفادة منها.

الإسلامية المخطوطة التي فيها ردود علماء المسلمين على اليهود أو على النصارى، فقد صنّفوا فهارس في إحصائها والتعريف بما علموا بوجوده منها وبمؤلّفيها، ثم العناية بعد ذلك بدراستها وتحقيقها وترجمتها إلى اللغات الأوروبية. تطوّرت نظرة المستشرقين للتصوّف الإسلامي على مدار القرون من البدايات المبكرة للاستشراق في القرن الثامن عشر التي ترتكز على فرضية أنّه من الروحانية والباطنية المناقضة للعقلانية الغربية. وبالنسبة إلى الباحث عمر الخطيب من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية في «جامعة قطر»، فإنّ الدراسات الحديثة التي رافقتها تغيّرات ملحوظة في المنهجيات والمنطلقات الفكرية، أصبحت أكثر أكاديمية، ولكنّها ظلّت في مجملها حبيسة البعد الادعائي باستقلالية مصرية التصوّف عن الأصل الإسلامي قبل أن تتحوّل مع جهود المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون (1883 - 1962)، وبدرجة أقلّ المستشرق الإنكليزي رينولد نيكلسون (1868 - 1945)، في إثبات الأصل الإسلامي للتصوّف في تحوّل منهجي واضح. وفي الجلسة الثالثة بعنوان «دراسات الفقه الإسلامي وأصوله»، قدّم عبد القادر جدّي، الأستاذ في كلّية الشريعة والدراسات الإسلامية بـ«جامعة قطر» ما عنونها بـ«النظرة التقويمية لمقاربة الأكاديميا الغربية الفقهية». وإذ وقف الباحث على كمّ كبير من الدراسات الفقهية والأصولية وعلى عديد من الدراسات ذات الصلة بتاريخ الأفكار والمذاهب، لاحظ في كثير منها تخطّي المقرّرات الاستشراقية القديمة التي نشأت مع دراسات المستشرق المجري إغناتس غولدتسير (1850 - 1921) والمستشرق الألماني جوزيف شاخت (1902 - 1969)، وبعضها توسّع في المصادر الفقهية العربية وناى بنفسه عن التحيّزات المذهبية والطائفية.

وأبرز الباحث، مستنداً إلى مرجع أكسفورد في الفقه الإسلامي وأصوله وتاريخه، ما يمكن أن يستفيد منه الباحث الفقيه المسلم في منهجية التحليل، وكيفية مراكمة المناهج المختلفة في الكتابة الفقهية ذات المضمون التاريخي والتحليل.

وفي قضايا الدلالة والتأويل في تراث المسلمين، رأى محمد الساعي من كلّية الشريعة والدراسات الإسلامية بـ«جامعة قطر» اهتماماً ملحوظاً بهذا الحقل في الدراسات الأكاديمية الغربية، وهي دراسات شديدة التنوّع، من جهات متعدّدة، كالتخصص، فمنها ما هو أقرب إلى

إضاءة

تواطؤٌ صامت بين القانونيّين والدبلوماسيّين والمثقّفين والإعلام

فنّ إنكار الإبادة

مثقّفو فرنسا، بمن فيهم كُتّابنا من الأصول العربية، عزفوا عن إدانة ما يجري في غزّة، واهتمّوا بأولويات أخرى مثل إعادة تعريف «العلمانية»

نجم الدين خلف الله

منذ أن انطلقت عمليات التقتيل في غزّة، مارست آلة السياسة والإعلام في فرنسا كلّ فنون الإخفاء والتضليل حتى لا يشبع عدد الضحايا في ثنايا المشهد الثقافي ولا تفوح فيه رائحة الجثامين فتصير محور نقاش في أوساط تعوّدت الحديث عن كلّ شيء. في هذا الإنكار المُريب، انعقد تواطؤ صامت بين رجال القانون والدبلوماسيّين والمثقّفين ووسائل الإعلام؛ فئاتٌ أربع لها سلطة الصدع بالحقيقة، لكن تخلّت عنها بنيّة مبيّتة حتى لا يتخلخل بناء الوهم ولا يُنطق مصطلح «الإبادة».

كانت الخطّة بسيطة للغاية: لا يأتي أحدٌ على سيرة الحرب في غزّة أصلاً، والتركيز كلّه على معاناة أهالي المحتجَزين الإسرائيليّين أو على الضربات التي يوجّهها جيش الاحتلال لمقاتلي حركة حماس. وإن كان ولا بدّ من ذكر عدد ممّن يسقط من الفلسطينيّين، فبكلّ ما في اللغة من صيغ الحذر والتشكيك وبما تتيحه أساليب «المهنية الصحافية»، مثل: «حسب بيان وزارة صحّة حماس»، صيغة تهدف إلى نزع المصداقية عما تُقدّمه غزّة من معلومات حول الأعداد اليومية لشهدائها.

وتفنّن رجال القانون الدولي في التفريع والتضييق والتوسيع حتى لا ينطبق مفهوم الإبادة الجماعية، كما حدّده «نظام روما» وغيره من الوثائق والمعاهدات الدولية، على ما يجري في غزّة. وحتى يظلّ الكيان بمنأىً عن كلّ جهود قانونية لاتهامه وإدانته، يُطلقون تحديدات منهجية، يضيفون معاني ويحذفون أخرى في تحليل شديد التعقيد، فقط حتى لا يحيل مصطلح «الإبادة» على فظاعات «إسرائيل»، أمّا على غيرها، وفي أيّ عصر من عصور البشرية، فما أسرع ما يُنتضى المفهوم من مخابئه لإدانة الاتراك والأفارقة والروس وسائر أمم الأرض.

يخوض الساسة في كبائر الأمور ولا سيما صغائرها، ويدينون كلّ شرارة ووارد تصيب الكيان، تارةً باسم «الإرهاب» وتارةً بعنوان «معاداة السامية»، من غير أن يتكلّفوا مؤنة التنديد بعشرات الآلاف من القتلى. لا خبز ولا مداولات ولا تلك المناقشات الطويلة التي تطلّق بمجرّد أن يمسّ أحدهم في الجهة الأخرى. مثقّفو فرنسا، بمن فيهم كُتّابنا من الأصول العربية، وهُم الذين تعوّدوا التنظير للقيّم الإنسانية العليا وانتقاد بلداننا في مجال الحرّيات وحقوق الإنسان، عزفوا هُم أيضاً عن إدانة ما يجري على مرمى حجر منهم. اعتبروه شأناً غير ثقافي، موضوعاً لا يهمّ الفكر التجريدي ولا مناهج التفكيك. اهتمّوا بأولويات أخرى مثل إعادة تعريف «العلمانية».

وعلى ذكر هذه الأخيرة، انشغل رجال الدين، فيما تبقّى من الكنائس، وقد كان فيهم إبان الحرب العالمية الثانية «عادلون» (الذين حموا اليهود من وحشية النازية)، بمعضلات التحرّش الجنسي التي أصابتهم في مقتل. وعلى كلّ لا ملام عليهم، فلا صوت لهم سوى أمام ضمائرهم، وحتى هذه الفرصة ضيّعوها، إلّا ما ندر.

ما يلفت النظر ويجرحه هو متانة هذا التواطؤ الضمني الذي حصل بين أقطاب السُلطة، ولا ندري بأيّ طريقة ولا أين حصل إجماعهم الأخطبوطي الذي احتلّ العقول والألسنة، فاعجزها عن نطق كلمة «إبادة» ومنعها حتى من الإشارة إلى بعض معانيها الحافّة، إمعاناً في الإنكار وحرصاً على مكافحتها كما لو كانت فيروساً قاتلاً، يُوظّف كلّ شيء لطرده من جسد الأمّة الفرنسية ومن عقلها وخطاباتها.

وحتى عندما ينتقد البعض، مثل وزير الخارجية الأسبق دومينيك دوفيلبان، هذا الإنكار بنقده لا احتراماً لأرواح ضحايا فلسطين وإنّما تخوّفاً على الديمقراطية الفرنسية التي حجبت مثل هذه الحقائق «واقصت صوتاً كان من شأنه أن يُثري النقاش العام». حتى ضحايانا وسيلة إثراء، كما كانت المستعمرات سابقاً. وكما هو ضنى المهاجرين الآن. المهمّ أن يظلّ المشهد صافياً، أن تنساب الماكينة فلا ينزعج الكبار في صالوناتهم خلال أحاديثهم المسائية حول قطعة جُبن وقارورة نبيذ أحمر، شبيهٍ بلون دماء قانية لشعب يُباد.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

> حتى لا يتخلخل بناء الوهم ولا يُنطق مصطلح «الإبادة»

متظاهر يرفع علم فلسطين بوجه شرطة مكافحة الشغب، باريس، 27 أيار/ مايو 2024 (Getty)

إطلالة

الصحوة الضميرية

فوّاز حداد

كان المفروغ منه الاعتراف بعبقرية بيتهوفن وباخ وموزار... والقائمة طويلة، لكن لُوحظ تجاهُل اسم الموسيقار الألماني ريتشارد فاغنر على الرغم من مكانته من بعض الالبومات، حتى تلك التي تحتوي على مئة من روائع المقطوعات الموسيقية الكلاسيكية من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين.

بات سبب ما يشبه المنع لدى بعض الأوساط معروفاً، وهو أنّ فاغنر كان معادياً للسامية، وأنّه وسّع معاداة اليهود المنتشرة في عصره لتنسحب على مجالات الثقافة، خصوصاً الموسيقى، لدرجة تحويل مهرجان «بايروت» الشهير للموسيقى، الذي أسّسه فاغنر، إلى مكان يُقصي اليهود، إلى حدّ بات مجمعاً للأفكار العنصرية، حتى ارتبط في أذهان الكثيرين بالنازية، خاصّةً أنّ هتلر كان شديد الإعجاب به.

لم يكن فاغنر هو الذي خلق الكراهية لليهود. كان المناخ البغيض السائد في أغلب بلدان أوروبا. من جانب آخر، هل يُبرّر استماع هتلر لموسيقاه اتّهامه بالنازية، وإسقاطه من تاريخ الفنّ؟ ماذا عمّا أضافه، وقوّة تأثيره في عالم الموسيقى؟ عموماً نجا فاغنر من محاولات إلغائه كلّياً، وشفعت عبقريته بالتغاضي عن آرائه العنصرية. غير أنّ الأمور لم تتوقّف عند هذا الأمر، فمحاكمته لا تفتر عن الانعقاد بين حين وآخر، بما يشبه محاكم التفتيش.

تستدعي هذه الادعاءات، زمن انعكاس الرؤى الستالينية في كتابات العديد من رموز اليسار العربي، أبرزها كتاب «في الثقافة المصرية» لمحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس، وسار على منواله كتاب «الأدب والأيديولوجيا في سوريا» لنبيل سليمان ويوعلي ياسين، تقيّد كلا الكتابين بمفاهيم الواقعية الاشتراكية، وكان فيها اختزالٌ للأدب إلى صراع طبقات، فاعتُبر نجيب محفوظ روائيّ البرجوازية الصغيرة، لا يمثّل أدبُه الجماهير الكادحة، وتغصّ رواياته بأقوال ومفاهيم لا تقلّ عن الوعظ الديني. وطاولت الانتقادات أيضاً الرؤى الأخلاقية عند التطرّق لأدب إحسان عبد القدوس، باختياره أبطالاً لرواياته وقصصه لا يمثّلون الشعب المصري، في طريق الانحلال الأخلاقي والتعفّن النفسي وتدهور الضمير. ما أدى إلى طرح تساؤل أخلاقي: «لماذا كانت الدعارة وبيع الأجساد موضوعاً عامّاً في إنتاجه الأدبي؟»، بينما هناك مصر أخرى تستحقّ أن يختار الكاتب منها أبطاله.

أمّا في سورية، فقد جرى تصنيف الأدباء، بحسب التعاليم الجدانوفية إلى برجوازي وعشائري... وهلمّ جرّاً. طاولت عبد السلام العجيلي وزكريا تامر وشكيب الجابري وغيرهم. كانت الاتهامات تُكال تبعاً للثقافة المهيمنة، من خلال إطلاق الأحكام السلبية على أعمال الأدباء والفنّانين، كما حصل للكثير من الأعمال الطليعية لجويس وبيكيت وبروست وبيكاسو، وإذا كانت قد انصبّت على شيء، فعلى تقييد حريّة الأديب والفنّان في التعبير عن رؤاه الفنّية. كما صودرت الأعمال الأدبية للنروجيي كنوت هامسن والفرنسي لويس فرديناند سيلين وكادا أن يُعدما، لاتهامهما بالتعاون مع النازيّين. تمثّلت اليوم الدعوات الجديدة تحت عنوان «الصحوة الضميرية» بالدعوة إلى حصول الفئات المضطهدة والمهمّشة، النساء، الأعراق المضطهدة، المثليين وغيرهم، على حقوق مساوية، قانونياً واجتماعياً. ما يُسهم في إحداث تغيير اجتماعي وتربوي، ويعمل على تصحيح الحيف التاريخي الذي لحق بهما بسبب انتمائاتها أو توجّهاتها السياسية أو ميولاتها الجنسية. طبعاً، يحاول كلّ عصر فرض قيمه، لكن البدعة الجديدة أنّها كانت بأثر رجعي، كما حصل مع فاغنر، باتهامه بالنازية قبل ظهور النازية نفسها. وشملت مختلف أنواع الفنون والآداب، فنالت من كبار أدباء القرون الماضية، شكسبير كان واحداً منهم، فاتّهم بالعنصرية ومعاداة السامية، والمستغرب أنّه كان وراءها باحثون أكاديميون في الجامعات.

إنّ الخطر من ادعاءات كهذه ودعوات اعتبار رؤية الكاتب أو الفنّان ليست مدخلاً لفهم أدبه، وإنما ما قاله أو ما طرحه من آراء سياسية، ما يُشكّل حُكماً مسبقاً على قيمة فنّه.

(روائي من سورية)

مشهد

أن تنجو من المجزرة بمخيلةٍ ودفتر

صورة التُقطت في الثامن من أيلول

مرّت الصورة مع صور تشبهها، مع الإعلان عن افتتاح «يونيسف» 175 مركزاً موقّتاً للتعليم، تقدّم دروساً وأنشطة تُعنى بالصحّة النفسية والتنمية العاطفية!

محمود منير

ربّما لا تعني اللوحة أيّاً من الطلبة الجالسين بحضرة معلّمتهم، بنظرات ساهمة ومشتّتة، مثل أقرانهم في جميع أنحاء المعمورة، مع فارق بسيط يتمثّل في كون الصورة التي التُقطت في الثامن من أيلول/ سبتمبر، هي لأطفال في أحد المراكز التعليمية المؤقّتة بجباليا، شمالي قطاع غزّة، تُرهبهم نظرة شارة إلى الخارج، لذلك يغطّي أحدهم وجهه بكتاب أو يعبث بقلمه، أو ينظر أمامه بلا غاية! اللوحة في أعلى هذه الصورة مكتوبٌ عليها باللغتين العربية والإنكليزية: «هذا بيتكم الصغير»؛ عبارةٌ مرّ عليها الطلبة أو بعضهم منذ دخولهم الخيمة، التي يفترض أنّها حلّت مكان واحدة من أصل 677 مدرسة هُدّمت أو تحوّلت إلى مركز

مركز تعليمي موقّت لطلّاب المرحلة الابتدائية في جباليا، 8 أيلول/ سبتمبر 2024 (Getty)

للإيواء منذ بدء العدوان. كيف قرأ هؤلاء الصغار هذه الكلمات الثلاث؟ هل ما زالت أسماء الإشارة «هذا» و«هذه» و«ذلك» و«تلك» تعني دلالاتها المتعيّنة للقريب والبعيد؟ كيف تُستخدم هذه الأسماء عندما تكون وسط إبادة لا حدود لها في الواقع والمُخيّلة؟ وماذا بقي من دلالة للبيت بوصفه مكاناً للمبيت والسكن والسُكنى والإقامة والمأوى والملاذ والمنزل، حين تنزح لأكثر من عشر مرّات، وعشرين، خلال عام واحد! أمّا الصغير والكبير فقد تصبحان مفردتين فائضتين عن الحاجة حيث صوت الانفجار والدمار والألم والقهر يمحو كلّ رسم أو تصوُّر لحجم أو شكل أو هيئة!

الصورة ذاتها مرّت مع صُوَر تشبهها، مع الإعلان عن افتتاح «منظّمة الأمم المتحدة للطفولة» (يونيسف) قرابة 175 مركزاً موقّتاً للتعليم، تُقدّم دروساً في القراءة والكتابة والحساب لحوالي 30 ألف طالب. وبلغة الأرقام، التي باتت تخترق ماساة العصر، فإنّ أكثر من 600 ألف طالب لن يحصلوا على هذه الخدمة، بعد توقّف التعليم في غزّة للعام الدراسي الثاني. وسيُضاف إلى الدروس، بحسب صياغة الخبر، أنشطة الصحّة النفسية والتنمية العاطفية؛ وبعيداً عن آيّة تفسيرات مكرورة، فإنّ هذه الأنشطة يمارسها طلبة لا يزالون يعيشون القتل والإصابة والإعاقة والفقد والوجع والخوف؛ محاولة للتعافي من الجحيم وأنت بداخله، لأنّ إنقاذك منه ممنوع بقرار دولي. وعلى جانبي عبارة الترحيب بأطفال جباليا في «بيتهم الصغير»، لوحتان عليهما حروف الهجاء بالعربية والإنكليزية، لأنّ خبراء التعليم يعتقدون بربط شكل الحرف بصوته. هل سيرتبط شكل الألف لدى الأطفال بصوت الانفجار، والباء بصوت البرد الذي نهش أجسادهم في الشتاء الفائت، وهو يبعد الآن عنهم بشهر أو شهرين؟ تنقل هنا باب المخيّلة تجنّبا للوقوع في فخّ السخف والابتذال. في الصورة التي أتأمّلها لساعات، يظهر أطفال سدّوا باب المخيّلة وفتحوا دفاترهم ليخربشوا أحرفاً غير مفهومة أو ليرسموا أطفالاً بسمرة داكنة بسبب اكتوائهم بأشعّة الشمس لأشهر طويلة، وغالباً بأجساد نحيلة وثمّة بُقع بيضاء غطّت مساحات من الشعر، وسيلاحظ المعلّمون والمدرّبون سقوط قنابل من أعلى رسوماتهم، أو طائرة تقبض على أحلامهم، أو دبّابة تُطلق النار صوب أحبّة ومنازل وذكريات.

> التعافي من الجحيم وأنت بداخله، لأن إنقاذك ممنوع بقرار دولي

لكن طالباً يتمسّك بالواقع أكثر، سيرسم ما يشاهده ببصره لحظة الدرس؛ سقفٌ من القماش على أعمدة الخشب وطاولات صُنعت بخشب كذلك لا تفتح النفس على علم أو طعام، وكراسي حمراء تُستخدم في حفلات الأعراس ومآتم العزاء، ومعلّمة مُتشحة بالسواد تجمع طاقتها وترفع الصوت، وهي تنطق مفردة وتعيدها مرّات للتأكيد على وجودها في المكان، وأنّ للصوت صدى في العراء حتى لو انهارت أبنية وحقائق، وأنّ صوتها وأصوات طلبتها تنطلق دبذبات تقترب من بعضها وتفتّش عن أمل يخاتل الموت.

صورةٌ عادية؛ وسط فيضان صور أغرقنا منذ الثامن من تشرين الأوّل/ أكتوبر 2023. صور غزّة إذ يخنق روحها الوحش، الذي يحتمي بالرجُل الأبيض وأنظمة الاستبداد والفساد والخرافة، وتتوالى الأنباء في يوم نشر الصورة: استشهاد خمسة مواطنين من عائلة واحدة في جباليا، وتحذير للنازحين في دير البلح من أجل إخلاء المنطقة تحسّباً لخطر الغرق خلال فصل الشتاء المقبل، واستشهاد امرأة فلسطينية وطفلتها في خانيونس، وبدء المرحلة الثانية من تطعيم شلل الأطفال - في حملة وافق عليها جيش الاحتلال خوفاً على جنوده من العدوى -، وعداد الشهداء يتجاوز 17 ألف طفل من أصل 40 ألفاً وُثّقت أرقامهم حتى الثامن من أيلول/ سبتمبر 2024.

فعاليات

حتى غدٍ الاربعاء يتواصل في **بيت السناري** بالقاهرة معرض استعادي للخطّاط المصري **محمود إبراهيم سلامة** (1919 - 2017/ الصورة)، يضمّ مجموعة من اعماله التي تتنوّع بين خطّ الثلث والفارسي والنسخ والديواني. لُقّب سلامة بـ«شيخ الخطّاطين» وامتازت اشتغالاته لاكثر من سبعة عقود بطرق تنفيذ متنوعة.

تحت شعار «الكتاب وقت الشدائد يفتح الافق»، تنطلق في 25 تشرين الأوّل/ اكتوبر الجاري فعاليات النسخة الرابعة من **معرض ستوكهولم للكتاب العربي**، و تتواصل لثلاثة ايام، بمشاركة 400 دار نشر عربية واجنبية. يتضمّن المعرض برنامجاً ثقافيا يشمل ندوات وورشات وجلسات حوارية وعروضاً فنّية وثقافية وفعاليات للاطفال.

يحتضن **مسرح الجهات** في مدينة الثقافة بتونس العاصمة، ابتداءً من السابعة من مساء بعد غد، امسية استعادية لتجربة الفنّان التونسي **وناس خليجان** (1958 - 2024) الذي رحل في يوليو/ تمّوز الماضي. تتضمّن الامسية معرضاً لاعمال خليجان التشكيلية، وحفلا يؤدّي فيه مغنّون عددا من اغنياته بمرافقة «الاوركسترا السمفوني التونسي».

يُعرض، عند السادسة والنصف من مساء اليوم، في «مؤسّسة عبد الحميد شومان» (فرع جبل عمّان)، الفيلم الموريتاني الفرنسي **في انتظار السعادة** للمُخرج **عبد الرحمن سيساكو**، ويُتبع بجلسة نقاشية. يروي الشريط (2002) قصّة شاب موريتاني يعود الى مدينة نواذيبو لزيارة والدته، حيث سيشعر بخسارة الحياة التي تركها وراءه.